الترجمة و توليد المصطلح
الميتافورا الأرسطية في الثقافة العربية

د. زياد الزعبي
جامعة اليرموك – الأردن

1-الميتافورا الأرسطية:

مصطلح "الميتافورا" Metaphora مصطلح محوري في التفكير البلاغي الأسلوبي الأرسطي، وحضوره في كتابي "الشعر" Poetics و"الخطابة"Rhetoric يمثل ظاهرة تستوقف القارئ، وتستثير لديه جملة من التساؤلات حول هذا المصطلح ومحمولاته الدلالية، ووظيفته، أو وظائفه. ففي الكتاب الثالث من كتاب "الخطابة" المكرس لبحث مسألة التعبير اللغوي (Lexis) أو الأسلوب، تكرر استعمال "ميتافورا" ما يزيد على ستٍ وأربعين مرّة في صفحات قليلة. وفي الفصل الثاني والعشرين من كتاب "الشعر" ترد الكلمة نفسها إحدى عشرة مرّة وفق الترجمتين الإنجليزية والألمانية اللتين وضعتا مقابلها الصيغة الإنجليزية Metaphor، والصيغة الألمانية Metapher. (1)

أما في الترجمة العربية الحديثة فنجد عبد الرحمن بدوي يضع مقابلها كلمة "مجاز"، في حين يستعمل شكري عيّاد كلمة "استعارة".(2)

وهذا يعني أن اللغات الأوروبية حافظت على الصيغة اللغوية اليونانية للمصطلح مع قليل من التحوير في النطق والكتابة، أما الترجمات العربية فقامت بترجمة المصطلح إلى ما اعتقد أنه مقابل عربي له.

فما الذي يعنيه هذا المصطلح في لغته الأصل؟

تكشف قراءة النَص الأرسطي الذي كرّس للحديث عن الميتافورا، والمواطن التي ورد فيها في كتابي "الخطابة" و "الشعر" عن دلالة محورية عامة لمصطلح الميتافورا هو "النقل" نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر"(3)، وبعبارة الترجمة الألمانية :

"Metapher ist die Uebertragung und zwar entweder von der Gattung auf die Art..." (4)

وفي الترجمة الإنجليزية تحل كلمة transference في محل Uebertagung التي تعني عملية نقل.(5) لكن تعريف "الميتافورا" بأنها عملية نقل يقدم وصفاً عاماً لدلالتها، ولكنه لا يحددها؛ لأن عملية النقل يمكن أن تتم على أنحاء مختلفة ومتعددة، ولذا فإنّ الميتافورا عند أرسطو تنطبق على كل عملية نقل "transposition" للألفاظ.(6) فالكلمة اليونانية Metaphora مكونة من جزأين: meta وتعنى إلى، ما بعد، خلف، أعلى، أما phora فهي نوع من التغيير (Change)، وهو تغيير مرتبط بالمكان (Location).(7) لكن دلالة الميتافورا لا تتوقف عند هذا الحدّ من التغيير، ذلك لأن أرسطو يربط عملية التغيير هذه بمصطلح آخر هو allotrios, alien الغريب، فنقل اسم يخص شيئاً إلى شيء آخر يمثل عملية ابتعاد عما هو مألوف في الاستعمال اللغوي القاعدي أو العادي، وهذا ما عبر عنه أرسطو بقوله واصفاً لغة الشعر:

"وتكون نبيلة بعيدة عن الابتذال إذا استخدمت ألفاظاً غريبة عن الاستعمال الدارج. وأقصد بذلك: الكلمات الغريبة (الأعجمية) والمجاز [الميتافورا] والأسماء الممدودة (المطولة) وبالجملة كل ما هو مخالف للاستعمال العادي".(8)والنص الانجليزي المقابل للترجمة العربية السابقة هو:

"The diction becomes distinguished and non-prosaic by the use of unfamiliar terms, i.e. strange words, Metaphor, lengthened forms and every thing that deviates from the ordinary modes of speech". (9)

وهذا ما قاد بول ريكور إلى اعتبار أن الميتافورا الأرسطية بهذا المفهوم الذي ينطلق من الابتعاد عن اللغة المألوفة، أو الاستعمال العادي يمثل مؤشراً عاماً على النظرية العامة للانحراف التي أصبحت مقياساً للأسلوبية عند بعض المؤلفين المعاصرين.(10) ومثل هذا التصور يكشف بوضوح عن العلاقة العميقة بين مفهوم الميتافورا والتغيير من جانب وهذين المصطلحين ومصطلح الانحراف المعاصر من جانب آخر، ذلك لأن الأخير تحول إلى مصطلح ذي دلالات شمولية يمكن أن تندرج تحته كل الصّور البلاغية التي تمثل خروجاً على الاستعمال اللغوي العادي الذي يمثل قاعدة مرجعية تقاس عليها عمليات الانحراف أو الخروج عنها.

وهذه الدلالات الواسعة التي يحملها مصطلح "الميتافورا" تظهر أنه لا يماثل أو يتطابق مع مصطلح الاستعارة الحديث سواءً في إطار الثقافة الأوروبية نفسها أم في إطار الثقافة العربية كذلك؛ لأن المصطلح بصورته المتداولة يعبر عن شكل بلاغي معين، وفقد بالتالي المفهوم الشمولي الذي يتبدى في التصورات الأرسطية التي تكشف عنها سلسلة من الأمثلة والتطبيقات الموضحة التي وردت في كتاب "الخطابة"، والتي تغطي مجموعة كبيرة من الأشكال البلاغية تشمل: التشبيه، والاستعارة بالمفهوم الرّاهن المحدود، والمجاز (المرسل)، والتمثيل.الخ (11)

وأودّ هنا أن أركز بشكل محوري على أن هذا المفهوم الأرسطي الشامل للميتافورا قد أدرك بدقة في إطار الثقافة العربية في عصر ازدهارها الأول.فقد فهمه مترجم الخطابة على نحو يكتنفه بعض غموض، وفهمه الفلاسفة ابن سينا وابن رشد على نحو دقيق مثير للإعجاب، فوضعوا مقابل "الميتافورا" الأرسطية مصطلحاً عربياً هو "التغيير"، وهو مصطلح حمل الدلالة الشمولية التي حملها المصطلح الأرسطي، وعمق عبر سلسلة من الأمثلة والتطبيقات المأخوذة من اللغة العربية وأدبها. وهذا أمر كان يمكن أن يترك تأثيراً عميقاً في البلاغة العربية على صعيد المصطلح وصياغته، وعلى صعيد الدلالات التي يمكن أن يحملها. وهو أمرٌ لم يحدث، على الرغم مما مثّله هذا المصطلح من حضور غير عادي عند المترجمين والفلاسفة. فقد ورد هذا المصطلح

سبعاً وخمسين مرّة في الترجمة العربية القديمة لكتاب الخطابة، واثنتين وثلاثين مرّة في شرح ابن سينا لكتاب"الخطابة" ومرتين في تلخيصه لكتاب "الشعر".(12) أما عند ابن رشد فقد احتل مصطلح التغيير مكانة محورية ، فظهر في تلخيصه لكتاب الخطابة، في "المقالة الثالثة" منه، مئة وسبع مرّات، وفي تلخيصه لكتاب "الشعر" ورد المصطلح ست عشرة مرّة في الفصل المخصص للحديث عن اللغة الشعرية.(13) لكن هذا الحضور الكثيف للمصطلح ظل مجرد ظاهرة حبيسة في دائرة المترجمين والفلاسفة، ولم يستطع دخول دائرة المصطلحات البلاغية العربية. ولعل الاعتقاد بأن هذه الأعمال تنتمي بصورة مطلقة إلى العلوم غير العربية، وإلى حقل البحث الفلسفي وليس البلاغي أو النقدي، كان وراء عملية محاصرتها وإبقائها خارج سياق البحث البلاغي العربي.

2-الميتافورا في الترجمة العربية القديمة:

في الترجمة العربية لخطابة أرسطو التي تعود إلى نهاية القرن الثاني الهجري نجد المترجم يضع مقابل كلمة Metaphora اليونانية كلمة "تغيير" أينما وقعت؛ فقد فهم الميتافورا الأرسطية بوصفها عملية "تغيير" في صيغ الكلام المألوف أنى كانت صورة هذا التغيير. ويظهر أن هذا المفهوم-كما سبقت الإشارة-يشمل كل الصور البلاغية العربية الواقعة في أبواب البيان والمعاني والبديع، وهنا يصبح مصطلح الاستعارة العربي جزءاً من المصطلح الأرسطي ميتافورا، كما يظهر في ترجمة الخطابة، لكنه ليس مصطلحاً يساويه أو يقابله؛ ذلك لأن مصطلح الاستعارة في البلاغة العربية قد حمل مفهوماً محدوداً لا يكاد يختلط بغيره من العناصر البلاغية، فهو لا يلتبس على سبيل المثال بالتشبيه، أو بالمجاز المرسل أو العقلي أو غير ذلك من العناصر البلاغية بعامة. في حين يحمل مصطلح الميتافورا الأرسطي دلالة عامة تتم بالشمول والاتساع تجعل منه "عنواناً" لعدد كبير من الصيغ البلاغية التي تندرج تحته. وهذا الأمر يعود إلى كون دلالة الميتافورا عند أرسطو-كما تترجم في اللغات الأوروبية الحديثة-

تحمل دلالة(النقل). وقد فهمت هذه الدلالة "النقل" بوصفها عملية تغيير (Change)كما يقول بول ريكور، وهو تغير مرتبط بالمكان (location).(14)

ومن الطريف أن نجد أنّ الترجمة العربية القديمة لهذا المصطلح قد حددت دلالته بصورة مثيرة ، ولم تضع مقابله أبداً كلمة "استعارة"، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فحين نقابل جملة The simile also is a metaphor على "ثم إن المثال أيضاً تغيير".(15) فالمترجم هنا يدرك أن "المثال = التشبيه" يدخل أيضاً في باب التغيير (وليس في باب الاستعارة حسب المصطلح العربي)، لأن قراءة النص الأرسطي تظهر دون لبس أن الميتافورا لا تنحصر بالاستعارة بالمفهوم الضيق. وهذا فهم فيه نوع من الدقة في التعامل مع المصطلح ومحاولة إيجاد مقابل لغوي له في اللغة المترجم إليها. وربما أسعف على ذلك في هذه المرحلة المبكرة التي تمت فيها الترجمة أن المصطلحات البلاغية العربية لم تكن قد أخذت في التشكل، وهو ما منح المترجم حرية كبيرة في البحث عن مقابل لغوي للمصطلح، وليس عن مكافئ له.

وحين نتقدم إلى مرحلة أخرى ونقرأ ترجمة متى بن يونس لمصطلح الميتافورا نجده يضع مقابله لفظة غير متداولة لا في الاستخدام اللغوي المألوف ولا في الإطار البلاغي، فهو يضع كلمة "متأدٍ" (القول المتأدي) (16) مقابل Metaphora . وهي يمكن، على نحو ما، أن ترتبط بمعنى النقل والتغيير، إذ يشير لسان العرب إلى أن معنى أداه: أوصله. وهذه الترجمة تشي بعدم معرفة المترجم السرياني العربية معرفة كافية. فهو يحاول أن يقوم بترجمة حرفية للمفردات دون نظر إلى محمولاتها الدلالية. وحين بيّن متى بن يونس دلالة "اللفظ المتأدى" يقول:"تأدى الاسم: هو تأدية اسم غريب إما من الجنس على الجنس بزيادة، وإما من النوع بزيادة التي بحسب تشكل الذي نقوله من الجنس ... "(17) و هذه الجملة يقابلها في الترجمة الانجليزي:

"Metaphor consists in giving the thing a name that belongs to some thing else; the transference being either from genus to species, or from species to genus..." (18).

وواضح أن المترجم بوضعه كلمة (هو تأدية). يحاول نقل النّص، وليس دلالاته التي ربما لم تكن واضحة له. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمثلة المتصلة بهذا الموطن من الحديث تشير على نحو جلي أن الميتافورا- (التأدية) ترتكز على عملية تغيير، وبعبارة متّى الشارحة "إبدال" وذلك أن الشاعر يقول (قطع) بدلاً من قتل".(19)

وفي مكان آخر يعود متى فيترجم كلمة ميتافورا بكلمتين هما "التأدية والانتقال"(20) وهو هنا ربما شعر بأن لفظ التأدية غير دالٍ على المعنى المقصود فأردفه بلفظ "الانتقال" الذي يعني بصورة واضحة اقتراباً كبيراً من الدلالة الحقيقية للكلمة اليونانية. وهو يكرر استعمال "التأدية والانتقال" مقترنين مقابل "ميتافورا" في مواطن متعددة من ترجمته. لكن ما يحب تأكيده هو أن متى يستعمل على نحو نسقي كلمة "تأدية" ترجمة لـ"ميتافورا"، وأضاف كلمة انتقال وقرنها بها في المواطن التي كانت تتطلب شرحاً أو إيضاحاً. "وأن يكون مما يتأدى هو عظيم كبير"، وأما التي تتأدى فتصلح لأوزان الشعر المعروف بأيابنو".(21) والأمر الذي يثير الانتباه في ترجمة متى بن يونس المتوفي مطلع القرن الرابع الهجري هو عدم استعماله كلمة "استعارة" العربية البتة، على الرغم من أنها أصبحت في تلك المرحلة مصطلحاً متداولاً على نحو واسع في الكتابات البلاغية والنقدية والأدبية العربية بعامة. وربما كان هذا مؤشراً على غير أمر، فإما أن يكون متّى غير متصل بالكتابات العربية المتعلقة بموضوعه في هذا العصر، وإما أنه كان يدرك أن لفظة "استعارة" ليست مقابلاً صحيحاً لكلمة "الميتافورا"، مما دعاه إلى استعمال المفردة الغريبة "تأدية". ولعل الأصل السّرياني الذي نقل عنه قد قاده إلى هذا، فالترجمة عن ترجمة ربما تضع المترجم أمام خبارات لغوية تقع في إطار علاقة لغته (السّريانية التي ترجم إليها النص اليوناني) باللغة العربية التي يترجم إليها، وبذا تبتعد صورة المصطلح أو الكلمة الأصلية. ولعل هذا ما يدفع إلى الافتراض بأن كلمة تأدية العربية كانت مقابلاً للكلمة السريانية التي وضعت مقابل كلمة "الميتافورا" الأرسطية.

وهذه حال نقع على أمثالها في الوقت الراهن حين نقرأ ترجمتين عربيتين لكتاب ألماني مثلا ترجم مرة عن اللغة الإنجليزية وأخرى عن الفرنسية وليس عن اللغة الأصل، ففي كل مرة نشهد ابتعاداً عن النص الأصلي لصالح اللغة الوسيطة.

3-الميتافورا عند الفلاسفة:

وحين نتابع مصطلح الميتافورا عند الفلاسفة المسلمين نجد أن المصطلح قد تجلى في غير صورة؛ اعتماداً على فهم كل فيلسوف للمادة المنقولة، أو المترجمة التي اطّلع عليها، والتي أخضعها لعمليات تصرف وإعادة صياغة. فالفارابي الذي لا يظهر المصطلح في تلخيصه كتاب الشعر الأرسطي، يتحدث عن التشبيه في الموطن نفسه الذي تتحدث فيه الترجمات السابقة عن "الميتافورا" وعن الاستعارة من الجنس أو النوع.(22) ولكنه يشير إلى هذا المصطلح في "العبارة" ذاهباً إلى أن "الاسم الذي يقال على الشيء باستعارة، هو أن يكون دالاً على ذات شيء راتباً عليه دائماً من أول ما وضع، فيلقب به في الحين بعد الحين شيء آخر لمواصلة للأول بنحو ما من أنحاء المواصلة ...".(23)

وهذا النص يبين بوضوح أنه يفهم الاستعارة بوصفها عملية نقل للكلمات ودلالاتها من اسم إلى آخر. وهو بهذا التصور ما يزال يدور في فلك الدلالة الأرسطية للميتافورا، لكن دون إحالة مباشرة عليها، كما يظهر مما تبقى من نصوصه الشارحة للتصورات الأرسطية.

لكن الوقوف على ما قام به ابن سينا في شرحه كتابي "الخطابة" و"الشعر" يضعنا أمام عملية امتداد موسعة ومطورة لمصطلح "الميتافورا" الأرسطي، إذ يظهر ابتداءً أنه يتابع خطى الترجمة العربية القديمة لخطابة أرسطو التي وضعت كلمة "تغيير" مقابل الميتافورا الأرسطية أينما وجدت، فهو-ابن سينا- يكرر استعمال مصطلح التغيير في الكتاب الثالث من كتاب الخطابة ما يزيد على اثنتين وثلاثين مرّة.فنصّ الترجمة القديمة:

"إن فضيلة المقال أن يكون بالتغيير..." يقابله عند ابن سينا: "واعلم أن القول يرشق بالتغيير".(24) ويطرّد هذا التطابق في عدد كبير من المواطن بين الترجمة القديمة وشرح ابن سينا.(25) غير أن عناصر جديدة تدخل في التصورات السينوية لهذا المصطلح، أهمها أنه لم يحافظ على صورة واحدة له، فقد استعمل إلى جانب مصطلح التغيير أو عطفاً عليه أو شرحاً له مصطلحات أخرى مرادفة أو شارحة، فهو يذهب في موطن إلى القول:"المتغيرة أي المستعارة وما يجري مجراها من المجاز"(26)، مما يعني أنه يجمع المصطلحات الثلاثة المقابلة لِ "ميتافورا" وهي المتغيرة "التغيير"، والاستعارة، والمجاز، ويكرر وضعها في مقابل المصطلح الأرسطي في غير موطن من شرحه، فعبارة متى بن يونس في ترجمته كتاب "الشعر": "وأما التي تتأدى فتصلح لأوزان الشعر المعروف بايانبو"(27) تظهر عند ابن سينا بهذه الصيغة: "كما أن الاستعارة تناسب إيامبو".(28) وعبارة ترجمة الخطابة القديمة: "ثم إن المثال أيضاً تغيير لكنهما يختلفان قليلاً..."(29) يقابلها عند ابن سينا:"والتشبيه يجرى مجرى الاستعارة".(30)

وفي مواطن أخرى يورد ابن سينا مصطلحي الاستعارة والتغيير متعاطفين:"واعلم أن الاستعارة والتغيير..."، و" أن يستعير ويغير"، أو يورد أحدهما صفة للآخر،كقوله:" ومن التغييرات الاستعارية اللذيذة...".(31)

وفي كتاب "الشعر" نجد مواطن مشابهة لما في الخطابة،بل إنه يحيل عليها أحياناً، كما في قوله:" وأما المتغير وهو المستعار والمشبه على نحو ما قيل في الخطابة".(32) إلا أننا نجد ابن سينا يضع كلمة نقل مقابل "ميتافورا" حين يتحدث عن أنواع الألفاظ المستعملة في الشعر، فيقول: "والنقل فأن يكون أول الوضع والتواطؤ على معنى وقد نقل عنه إلى معنى آخر .. فتارة ينقل من الجنس إلى النوع، وتارة من النوع إلى الجنس..."(33) والأمر الواضح هنا أنه يضع كلمة "نقل" مكان كلمة تأدية الواردة في ترجمة متى بن يونس التي وضعها بدوره مقابل "ميتافورا". والطريف أن كلمة "نقل" أو ما يمكن أن يحل مكانها قد سقطت في عملية عدّ أصناف الأسماء دون إشارة من المحقق،

في المرتين.(34) وقد يترتب على هذا الظن أن ثمّة لبساً قد وقع لدى ابن سينا وهو يرى أن كلمة متغير التي وضعها مقابل ميتافورا قد تكررت مرتين، وهي التي فهم أنها تقابل الاستعارة، فكان عليه أن يجد حلاً لهذا الإشكال. فكان أن تحدث عن النقل في مكان الحديث عن "الميتافورا". وحين انتقل لبيان المقصود بالنوع السابع من الأسماء ذكر أنه "المستعار والمشبه على نحو ما قيل في الخطابة "(35) وهو فهم خاطئ تماما لكلمة "مغير" الأرسطية التي تعني تغيير بعض حروف الكلمة ،ولا تعني بأي حال التغيير بمفهوم الاستعارة أو النقل أو التأدية. وقد حدث هذا على الرغم من الوضوح النسبي التي ظهرت به هذه الجملة في ترجمة متّى بن يونس التي جاءت على النحو الآتي:

" وأما المختلف (المتغير) فهو متى كان الذي يُسمى بتر بعضه... بمنزلة ما قوله إنه ضربه على ثديه الميمني بدل قوله " ثديه اليمين".(36) وهذا ما يظهر في الترجمة الانجليزية:

"It is an altered word, When part is left as it was and part is of the poet's making". (37)

وقد تكررت عملية الخلط الخاطئ هذه بين المغير بمعنى المستعار، والمغير بمعنى تغيير بعض حروف الكلمة الواحدة عند ابن رشد. ولعل السبب يعود في هذا إلى الفهم الراسخ لدى الاثنين بأن التغيير مرتبط "بالاستعارة" وبنقل الأسماء من حقل دلالي إلى حقل دلالي آخر اعتماداً على صورة هذا المصطلح الذي رسخته ترجمة كتاب الخطابة، ولذا فإن الفيلسوفين حين وقفا على كتاب الشعر وجدا كلمة التغيير في مكان آخر مختلف، ودلالة مختلفة، وذلك لأن متّى بن يونس لم يستعمل كلمة "تغيير" في مقابل "ميتافورا" بل استعمل كلمة التأدية، وأردفها بالانتقال في بعض المواطن، وجعل النوع السابع من الأسماء تحت "المتغير"، وبذا وجد ابن سينا، وبعده ابن رشد نفسيهما أمام مصطلح استعملاه على نحو محوري وواضح في الخطابة، وهو التغيير أو القول المغير،ووجدا هذا المصطلح نفسه في كتاب فن الشعر يحمل دلالة أخرى لم يتمكنا من

تحديدها أو تخمين دلالتها فأدمجا المصطلحين معاً فأصبح مصطلح التغيير المرتبط بإحداث عملية تغيير في حروف الكلمة الواحدة altering the letters of a word(38) يحمل الدلالة نفسها التي يحملها مصطلح التغيير بمعنى استعمال صيغ لغوية استعارية، أو منقولة.

ولعل الأمر الطريف أن النص الأرسطي نفسه يظهر نوعاً من التداخل بين الدلالات التي يحملها مصطلح "ميتافورا" حين يشرح موضحاً بالأمثلة وبين مصطلح الكلمة المغيرة "altered word" ، حيث تستخدم كلمة واحدة في الحالين لبيان دلالة كلٍّ من المصطلحين المتباعدين؛ مما قاد إلى نوع من الخلط عند الشارح العربي لدلالة المصطلحين. فأرسطو يتحدث عن عمليات التغيير في الصيغ اللغوية المألوفة لتبدو أكثر غرابة وملاءمة للشعر مستعملا كلمة allotriosالذي يعني "غريب أو الشيء الذي لا يخصُّ الموضوع مما يعني أن مفهوم الاستعارة القائم على نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر"(39) يتقاطع، بل يدخل في باب التغيير أو الغرابةalien/allotrios ، وذلك استنادا إلى استعمال لفظ غريب مكان لفظ عادي مألوف. (40) وهذه الصورة من التداخل بين المحمولات الدلالية للمصطلحات التي تظهر في أثناء شرحها والتمثيل عليها تظهر في الترجمات الحديثة لأرسطو(41). لكن مشكلة الفلاسفة المسلمين إزاء هذه القضية كانت تكمن في عدم معرفتهم النص الأصلي، واعتمادهم على الترجمات المختلفة استعملت لفظة واحدة للدلالة على المصطلحين: فمتّى يضع كلمة متغير مقابل "altered word" في حين يضع مترجم الخطابة كلمة المتغير أو المغير مقابل مصطلح ميتافورا، مما أدى بهم إلى تغليب مصطلح " التغيير" بمعنى الاستعارة والمجاز، وإلغاء التغيير الذي يعني إحداث تغيير في حروف الكلمة. (42)

ويجب أن نتوقف هنا أيضاً لنبين لمَ عمل ابن سينا وابن رشد على استعمال صيغ اصطلاحية متعددة في مقابل مصطلح واحد في الأصل"الميتافورا" عند أرسطو، والتغيير عند مترجم الخطابة، والتأدية والانتقال عند متّى بن يونس؟

إن ما ينبغي ملاحظته ابتداءً أن ثمةَ فارقاً جوهرياً بين عمل المترجمين وعمل الفلاسفة، يتمثل في التزام المترجم بالنص الأصلي، وبمحاولته إيجاد مقابلات لفظية عربية للنص اليوناني "السُّرياني" وهو ما جعلهم لا يخلطون أو يعددون المصطلح، فقد ثبت كل منهم على مصطلح معين مقابل المصطلح الأصلي. في حين كان الفلاسفة يقومون بعمل يختلف جوهرياً عنهم، ينهض على الترجمة، بل يتبناها ويحاول الإفادة منها في بناء التصورات والأفكار الأرسطية وشرحها وبيان دلالاتها استناداً إلى عملية فهم النص، وليس إلى إعادة النّص، مما يعني أن الفلاسفة قد وظفوا مرجعياتهم الثقافية واللغوية حتى عصرهم في سبيل فهم أرسطو وشرحه، بل ورؤيته في إطار المرجعية الثقافية الخاصة بهم، فكان أن ارتدت الأفكار والمصطلحات الأرسطية أردية عربية. فنحن نقرأ لأول مرّة مصطلح الاستعارة مقروناً بمصطلح التغيير "المقابل" المُترجم للميتافورا الأرسطية عند ابن سينا، وذلك لأن المصطلح البلاغي "الاستعارة" كان قد ترسخ استخدامه في القرن الرابع الهجري، وأن مفهومها يلتقي على نحو واضح مع ما يحمله المصطلح الأرسطي من دلالات، وبالتالي أسند المصطلح الأرسطي إلى مقابل مشابه له في الثقافة العربية،وإن كان لا يماثله. وهكذا بدأ المصطلح الأرسطي يتجلى في الثقافة العربية بغير شكل حين التقى بما يقاربه أو يشابهه، وراح يعتمد على ركائز من الأمثلة الشارحة له. وبذلك حدثت عملية تداخل متبادلة بين المصطلحات العربية التي ركبت على المصطلح الأرسطي، وبين المصطلح الأرسطي الذي أدخل إلى دائرة المصطلحات البلاغية والنقدية العربية حاملاً ملامح واضحة من أصوله اليونانية، ومرتدياً في الوقت نفسه أردية عربية خلعها عليه الفلاسفة الشارحون ابتداءً، ومن اعتمد عليهم فيما بعد، مثل عبد القاهر الجرجاني.(43)

ولذا فإن عمل الفلاسفة كان يمثل نوعاً من المزج الطريف بين النّص الأرسطي الأصلي ومصطلحاته، والفهم الثقافي الخاص المرتبط بمرجعياتهم الثقافية والمعرفية التي وفرت لهم سادّة سابقة أسعفتهم في شرح النّص، وسمحت إمكانية بناء صيغ اصطلاحية مهجنة عبر عملية تزاوج بين المقابلات المترجمة للاصطلاحات الأرسطية

والمصطلحات البلاغية والنقدية العربية؛ مما أدى إلى عمليات من التحول في الصيغ اللغوية الاصطلاحية من جانب، وفي محمولاتها الدلالية من جانب آخر. فابن رشد يعرف التغيير بقوله:

"ومعنى التغيير أن يكون المقصود يدل عليه لفظ ما فيستعمل بدل ذلك اللفظ لفظ آخر. وهذا التغيير يكون على ضربين: أحدهما أن يستعمل لفظ شبيه الشيء مع لفظ الشيء نفسه ويضاف إليه الحرف الدال في ذلك اللسان على التشبيه. وهذا الضرب من التغيير يسمى"التمثيل" والتشبيه وهو خاص جدا بالشعر. والنوع الثاني من التغيير أن يؤتى بدل ذلك اللفظ بلفظ الشبيه به أو بلفظ المتصل به من غير أن يؤتى معه بلفظ الشيء نفسه. وهذا النوع في هذه الصناعة يسمى الإبدال وهو الذي يسميه أهل زماننا بالاستعارة والبديع". (44)

في هذا النص لابن رشد نرى كيف تتم عملية فهم المصطلح وتكييفه في إطار الثقافة المستقبلة، فالميتافورا تغيير، والتغيير مصطلح ليس له ما يماثله في الثقافة العربية، ولذا فإنه يقابل على المصطلحات العربية التي تحمل دلالاته، وبالتالي يدخل في إطاره التشبيه والتمثيل والاستعارة. وهذا الفهم يظهر كيف أدرك الفيلسوف أن التغيير "الميتافورا" يتضمن مجموعة من المحمولات الدلالية التي جعلت عملية البحث عن نظير عربي يماثله أمرا غير وارد. وقد أدى هذا بابن رشد إلى النظر إلى المصطلح يوصفه مصطلحا عنوانيا Rubric تقع تحته مجموعة من المصطلحات الفرعية في البلاغة العربية، لأنه وجد أن الأمثلة الأرسطية على التغيير "المتافورا" تشمل مجموعة من العناصر البلاغية التي لا تقع في باب واحد من أبواب البلاغة العربية أو تصنيفاتها. فحافظ على صورة المصطلح كما وضعه المترجم الأول "التغيير" وأضاف إليه إيضاحات مبينة عن دلالاته من خلال مقابلته على مجموعة العناصر البلاغية العربية التي يمكن تندرج تحته، ولم يحاول أن يجد مقابلا اصطلاحيا مما هو متداول في البلاغة العربية التي وصلت في عصره إلى صورتها المكتملة من حيث تقسيماتها واصطلاحاتها

ولعل ما يثير الانتباه في هذا المجال أن كلاً من ابن سينا وابن رشد لم يحاولا أن يستعملا كلمة مجاز مرادفة لكل تغيير التي ورثاها عن المترجمين، أو شارحة لها. فالمجاز بمفهومه العام، قبل عمليات التعقيد النهائي للمصطلحات البلاغية كان يحمل منذ القرن الثاني الهجري دلالات عامة تشمل كلّ الأنواع البلاغية. ففي "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (ت 210 هـ) "يطلق لفظ المجاز على كل الأساليب التي ضمتها كتب البحث البلاغي-أو كثرتها- حيث يدور فهمه له على أن كلّ ما جاء من الأساليب والاستعمالات على خلاف النمط الذي تصوره النحاة واللغويون من جهة، وكما تقتضي عملية فهم العبارة من جهة أخرى".(45)

أما ابن قتيبة (ت 276هـ) فيقول: وللعرب المجازات في الكلام، طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريف والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجمع، والجميع خطاب الواحد...والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم...مع أشياء كثيرة" (46) ويتكرر مثل هذا النص عند علي بن خلف الكاتب (ت حوالي منتصف القرن الخامس الهجري)، وعند ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ). (47) وعلى الرغم من الوضوح في الدلالة العامة الواسعة لكلمة المجاز التي يندرج تحتها التشبيه والتمثيل والاستعارة إلا أن الفلاسفة عزفوا عن استعمالها مقابلا أو مرادفا لكلمة "التغيير" –الميتافورا- ولعل هذا يمثل محاولة في الحفاظ على صورة مميزة للمصطلح الوافد لا تتداخل مع مصطلح بلاغي يملك حضورا عميقا وراسخا في الثقافة العربية، ويملك في الوقت نفسه إضافة إلى معناه الشمولي العام، دلالة خاصة عند البلاغيين المتأخرين الذي فصلوا بينه وبين الاستعارة بوضوح. (48)

إن الوقوف الكبفية التي عالج بها الفلاسفة المسلمون مع مصطلح المبتافورا – التغيير- ليكشف عن فهم يدل بالدقة للمصطلح ودلالته، فلقد حرصوا ابتداء على المحافظة على صيغة لغوية عربية مقابلة وضعوها المترجمون ابتداء، رأوا أنها لا تلتبس أو تتداخل مع أي مصطلح بلاغي عربي آخر، فظل مصطلح "التغيير" مصطلحا

بلاغياً واقداً عبر الترجمة، لم يدخل وهذا أمر باعث على الدهشة إلى دائرة المصطلحات البلاغية الكبيرة. وأدرك الفلاسفة كذلك دلالات المصطلح الأرسطي ادراكاً صحيحاً تجلى من خلال التحديد النظري لمفهومه، والتطبيقات العملية الشارحة له.

على الرغم من عدم شيوع مصطلح "التغيير" بوصفه مقابلاً للميتافورا الأرسطية في الثقافة العربية، فإني أعتقد هذا المصطلح أكثر دقة من مصطلح "الاستعارة"؛ ذلك لأن كلمة"Metaphora " بمفهومها الأرسطي، وبدلالاتها الرّاهنة في الآداب الأوروبية لا تماثل مصطلح الاستعارة في البلاغة العربية الذي يحمل حتى الآن دلالة أكثر ضيقاً وتحديداً من مقابلها الأوروبي Metaphor الذي مازال يشمل التشبيه البليغ والاستعارة بالمفهوم البلاغي العربي. وهذا أمر يقف، حتى اليوم، وراء عمليات الاختلاف في الترجمة، ويسبب مفارقات تنجم عن التمايز بين المفهوم وتطبيقاته في اللغة المترجم عنها واللغة المترجم إليها، ولعل هذا ما سيظهر في الترجمات العربية الحديثة لمصطلح الميتافورا الأرسطية.

4-الميتافورا في الترجمات العربية الحديثة:

ثمّة ترجمتان عربيتان معروفتان لكتاب الشعر الأرسطي الأولى لعبد الرحمن بدوي والثانية لشكري محمد عياد، والاثنتان منجزتان عام 1952. وهناك ترجمة لكتاب الخطابة لعبد الرحمن بدوي كذلك. وسأقف فيما يأتي على ترجمة مصطلح الميتافورا الأرسطي عند بدوي وعياد.

يضع عبد الرحمن بدوي كلمة مجاز مقابل كلمة Metaphora اليونانية أينما وردت في النّص الأرسطي سواءً في كتاب "الشعر" أم في "الخطابة" دون أن يقدم أي إيضاح لدلالة المصطلح الأرسطي أو لمقابلة العربي، وتعامل على نحو كامل أي إشارة إلى المصطلح العربي القديم للكلمة وهو التغيير، على الرغم من كونه محقق كتاب "الخطابة" الترجمة العربية القديمة، ومحقق عمل كل من ابن سينا وابن رشد في "فن

الشعر"، وكتاب "تلخيص الخطابة لابن رشد الذين استعملوا على نحو واسع مصطلح "التغيير" مقابل الميتافورا الأرسطية.(49)

أما شكري عيّاد فقد وضع كلمة "استعارة" مقابل "الميتافورا" الأرسطية أينما وردت في كتاب الشعر دون أي إشارة كذلك إلى طبيعة المصطلح أو دلالاته أو حضوره عند الفلاسفة المسلمين، على الرغم من قوله: "إن الفكرة التي يظهر فيها ابن رشد أشد اقتراباً من أرسطو وأقدر على حل رموز متّى هي فكرة التغيير في الأسلوب الشعري".(50) ولكنه هنا لم يشر إلى أصل كلمة التغيير عنده.

وهنا نقف أمام إشكالية جديدة في ترجمة المصطلح؛ فالمترجم المعاصر يهمل بصورة كاملة الترجمة القديمة، بل إنه لا يقف ليحاول الإفادة منها ومن خلال عملية المقابلة، أو المقارنة التي يمكن أن تكون ذات فائدة تبادلية للترجمة الحديثة، والترجمة التراثية على حد سواء، إذ كان من الممكن أن تضئ كل منهما الأخرى على نحو ما. لكن المترجمين اختارا أن يقوما بترجمة حديثة وتركا للقارئ إمكانية المقارنة.

ولعل الأمر الذي يجدر الوقوف عليه هنا هو: لم اختار بدوي المجاز مقابلاً لِـ"الميتافورا" في حين اختار عيّاد مصطلح "الاستعارة" ؟

ابتداءً علينا أن نتذكر أن أكثر الترجمات شيوعاً لكلمة ميتافورا هي "الاستعارة"، ولعل هذا الأمر يعود إلى مقابلة المصطلح الأوروبي على المصطلح العربي الراسخ، والذي يمثل على نحو عام مقابلاً للمصطلح الأوروبي/ اليوناني، على الرغم من الاختلاف بينهما. وهذا يعني أن ترجمة المصطلح اليوناني Metaphora قيست على الدلالة المعاصرة للمصطلح في الآداب الأوروبية وهو قياس خداع، لأن المصطلح اليوناني الذي يستعمل الآن في صيَغِهِ الأوروبية ليس مطابقاً أبداً لدلالته الأرسطية. ولذا فإن شكري فيما أظن كان يقيس ترجمته على الترجمات الأوروبية التي احتفظت بالكلمة اليونانية ولكنها حددت دلالتها وقلصتها عبر مراحل طويلة من التعامل مع المصطلح، ولذا جاءت الترجمة متوافقة مع المفهوم المعاصر للميتافورا لا مع أصلها الأرسطي.

أما عبد الرحمن بدوي فقد حاول ألا يقع في خداع المفهوم المعاصر للمصطلح، فذهب إلى وضع كلمة مجاز في مقابل الميتافورا الأرسطية مستنداً في ما يبدو إلى الدلالة الشمولية التي يحملها قديماً وحديثاً، والذي تقع في إطاره مجموعة العناصر البلاغية الكبيرة التي مثّل عليها أرسطو في كتابي "الخطابة" و"الشعر". وأسعفه في ذلك إدراكهُ بأن مصطلح التغيير يمكن بسهولة أن يتطابق مع دلالة المجاز الواسعة وهو ما تبناه في تحقيقه كتاب "الخطابة" الترجمة القديمة، فقد وضع في المواطن التي أكمل فيها المواطن المطموسة من المخطوط كلمة مجاز مكان كلمة "تغيير" التي استعملها المترجم القديم. لكن القارئ المختص اليوم يتعامل مع مصطلح المجاز من خلال مرجعية ثقافية محددة، فالعربي لا يخلط في إطار البلاغة العربية في صورتها المكتملة بين المجاز والاستعارة، كما أنه يصرف ذهنه حين يحاور الكتب المترجمة إلى مصطلح Metaphora الذي يترجم الآن بالمجاز، وليس إلى ميتافورا. وهذا يعني أننا مازلنا نعاني إرباكاً في التعامل مع النّص المترجم ينبثق من اختلاف المحمولات الدلالية المصطلحات، فيما يوجب على المترجم أن يتعامل مع "المصطلح" بكثير من الحذر. ويمكن أن يتم له ذلك لو أنه لم يكتفِ بإيجاد مقابل للمصطلح المترجم، بل ذهب إلى بيان محموله الدلالي.

وفي ترجمتي عياد وبدوي كان ينبغي، فيما أعتقد، الإشارة إلى المصطلح الأرسطي نفسه، والنّص على أنه لا يتطابق مع مفهوم الاستعارة أو المجاز في البلاغة بل تعبير عام يشمل كل عمليات الخروج على المألوف اللغوي، أو كل العناصر البلاغية التي تَسِمُ اللغة الشعرية.

وهذا على سبيل المثال ما لمحَ إليه بول ريكور في بحثه المطول عن الاستعارة حين أبان أنّ "كلمة ميتافورا تنطبق على كل عملية نقل للألفاظ"(51)، وأنها "نظرية الاستعارة، تتأكد عبرة تجانسها مع طبيعة ال Epiphora التغيير". (52)

وبمثل هذا العمل يضع ريكود مصطلح الميتافورا في سياقه الدلالي الأرسطي، ويحاول في الوقت نفسه أن يقيم عملية مقابلة مع ما يمكن أن يماثله من المفاهيم

المعاصرة، وبخاصة مصطلح الانحراف (Ecart, Abweichung, Deviation) الذي يلتقي في مفهومه مع الميتافورا من حيث كونهما يشيران إلى كل عمليات الخروج عن الأصل اللغوي المألوف، وهذا ما عبر عنه أرسطو-حسب تعبير ريكور- بمرادفات أخرى مثل: alien/allotrios . (53)

وأعتقد أن مثل هذه الفكرة كان يجب أن تترسخ عربياً عبر مصطلح التغيير الذي ورد في الترجمة العربية القديمة للخطابة، وعبر شروح ابن سينا وابن رشد لكتابي "الخطابة" و "الشعر". فقد استعملا هذا المصطلح على نحو نسقي مقابل مصطلح الميتافورا الأرسطي، وكان يطرحان بذلك مفهوماً يتسم بالدقة والوضوح للمصطلح الأرسطي. ولكن طرحهما لم ينظر إليه النظرة التي يستحقها، والتي كان يمكن أن تكون مثيرة، لو كان ثمّة قراءة عربية دقيقة وجادة للأفكار والمصطلحات العربية، ومقابلاتها في الثقافة العربية. وهكذا ظلّ العمل الضخم الذي أنجزته الثقافة العربية في مرحلة ازدهارها الأولى من خلال حركة الترجمة الضخمة حبيسة نسبتها المستمرة إلى الماضي، وإلى فكرة سوء الفهم التي ألصقت، بالحق وبالباطل، بعمل المترجمين، ومساهمات الفلاسفة دون القيام بعمل جدي بلا فائدة من تلك الأعمال الضخمة في ما نقوم به الآن من محاولة لرسم ملامح لعلاقة التثاقف الجارية مع الآخر التي تستند دون شك إلى أبعاد تاريخية مترابطة الحلقات. والطريف في هذا السياق هو أن الأوروبيين ق بذلوا جهوداً ضخمة ومتكررة للإفادة من "الصور" العربية (الترجمات والشروح) لكتاب الشعر الأرسطي على وجه، وهذا عمل ليس له ما يقابله في إطار العمل الثقافي على الإطلاق. وأعتقد أن هذه الحال هي التي تقف وراء عملية الارتباك المستمر الذي تعانيه الثقافة العربية في علاقتها بالآخر، وفي قدرتها على نقل مصطلحاته ومحمولاتها الدلالية. فهي في الغالب تأخذ الصورة الأخيرة للمصطلحات والمفاهيم، دون عودة إلى أبعادها التاريخية، وترابطاتها الثقافية، ومفهوماتها المنبثقة من مرجعياتها المعرفية.

الهوامـــش

1-انظر: Aristotle: Rhetoric, translated by W. Rhys Roberts, in the complete works of Aristotle. Ed. Jonathan Barnes, Princeton University press. وفي الكتاب نفسه

Aristotle: Poetics, translated by I. Bywater

Aristoteles: Poetic, uebersetzt und Herausgegben von Manfred Fuhrmann Reclam Stuttgart 1984.

2- انظر: كتاب أرسطوطاليس في الشعر، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية شكري محمد عياد، القاهرة 1967م.

أرسطوطاليس: فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمة عن اليونانية وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، د.ت.

3-انظر ترجمتي بدوي ص58، وعيّاد ص116.

4- Poetics, P.67.

5- انظر الترجمة الإنجليزية poetic P.2332.

6-انظر: P. Ricoeur: The Rule of Metaphor, translated by Robert Czerny with Kathleen mclaughein and John Cosstello, Sj. London 1978, P.17.

7- انظر المصدر السابق.

8-بدوي، شعر 61. وقارن عيّاد 122.

9-الترجمة الإنجليزية Poetics 2233 .

10-انظر Ricoeur P.18 , وقارن حول مفهوم الانحراف Enkvist, Nils Erick: Linguistis styllistics, The Hague,P.15,98.

11-انظر أرسطو: الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بغداد 1980، ص193-230.

أرسطوطاليس: الخطابة، الترجمة العربية القديمة، ترجمة عبد الرحمن بدوي الكويت-بيروت، 1979،ص 181- 224.

لقد التفت مجيد عبد الحميد ناجي إلى هذا في كتابه "الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز،النجف الأشرف، 1976

12-انظر: ابن سينا: الخطابة، (من الشفاء) تح محمد سليم سالم القاهرة، 1966، 197-244.

بدوي: شعر،ص 192. وانظر مهدي صالح السامرائي :المجاز في البلاغة العربية ، حماة ،1974،ص42.فقد أشار إلى المعنى الشمولي لمصطلح الميتافورا الأرسطية.

13-انظر ابن رشد: تلخيص الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الكويت بيروت د.ت، ص254-305.

بدوي: شعر، 236-250.

14-انظر: .Ricoeur P.17.

15-الترجمة القديمة للخطابة ص 195.وانظر إبراهيم سلامة :بلاغة أرسطو بين العرب واليونان،دراسة تحليلية نقدية تقارنبة ،القاهرة ،ط2،1952 ، ص112 فقد أشار إلى أن "كلمة الاستعارة غير موجودة في مادة البلاغة اليونانية والموجود هو كلمة نقل،فالاستعارة من وضع العرب..

16-بدوي: شعر ص 129، 132،عياد ص 117.

17-المصدر نفسه: ص 133؛ عياد ص 117.

.Poetics P.2332-18

19-بدوي (ترجمة متّى) ص 130 عياد ص 119.

20-بدوي: شعر ص 132، عياد ص 125.

21-بدوي: شعر ص 135، عياد ص 129.

22-بدوي شعر ص 157.

23-الفارابي؛ أبو نصر: العبارة، تح محمد سليم سالم، القاهرة 1969، ص 19.24-

ابن سينا: الخطابة ص 202، الترجمة القديمة للخطابة ص 186.

25-انظر ابن سينا: الخطابة ص 202، وقارن مع الترجمة القديمة ص 186 -201، 208، 212.

26-ابن سينا خطابة ص 205.

27-بدوي (ترجمة متّى) ص 29.

28-ابن سينا: خطابة ص 212.

29-الترجمة القديمة للخطابة ص 195.

30-ابن سينا: خطابة ص 212.

31-المصدر نفسه ص 229.

32 -بدوي: (شعر) ص 192.

33-المصدر نفسه ص 192.

34-انظر بدوي: شعر (بيروت) ص 192 وبدوي كتاب الشعر ضمن كتاب الشفاء ص 66 35-بدوي: شعر ص 192.

36-بدوي (ترجمة متّى) ص 131.

. Poetics 2233-37

.Poetics 2254-38

39-بدوي: شعر ص 192، عياد ص 116.

40-انظر أرسطو: الخطابة ص 226 وانظر Ricoeur P.18-21.

41-انظر Poetics P.2332-2334 Poetik P.70-74.

42-انظر بدوي (ابن سينا). شعر ص 192-193.

بدوي (ابن رشد): شعر ص 237-238،242.

وكذلك في الخطابة، انظر المقالة الثانية عند ابن رشد.

والمقالة الرابعة عند ابن سينا.

43-انظر جابر عصفور: الصورة الفنية والبلاغية في التراث النقدي عند العرب الدار البيضاء، ط3،1992 ص 232.

الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة تح هيلموت ريتر، بيروت، ط3، 1983، ص 296-302.

44-ابن رشد: الخطابة، ص 255.

45-عبد الحكيم راضي: نظرية اللغة في النقد العربي، القاهرة،1980، ص 451.

46-ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تح. السيد أحمد صقر، القاهرة، 1954، ص 15-16.

47-انظر علي بن خلف الكاتب: مواد البيان تح. حسين عبد اللطيف، طرابلس(ليبيا) 1982، ص 113-114. وهو يستعمل هنا كلمة مغير لوصف المجاز.

انظر ابن رشيق: العمدة في مجالس الشعر وآدابه ونقده، تح. محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت،د.ت. ج1/ص 266.

48-انظر الجرجاني: أسرار البلاغة ص 296.

49 -انظر بدوي: الترجمة القديمة. المقالة الثالثة.

بدوي: الشعر ص 58-64.

بدوي: خطابة المقالة الثالثة.

50 انظر سياد: فن الشعر ص 219.

-51 Ricoeur P.16.

52 53 المصدر نفسه.